المسلمون والمسيحيون واليهود اليوم
التقارب والتعايش في زمان العولمة

إعداد الدكتور أنس كاريتش

رسائل مختارة

العدد ٢ - ٢٠١٦

DICID
مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
Doha International Center for Interfaith Dialogue

المسلمون والمسيحيون واليهود اليوم
التقارب والتعايش في زمان العولمة

إعداد الدكتور أنس كاريتش

رسائل مختارة

العدد ٢ - ٢٠١٦

من إصدارات:

DICID
مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان
Doha International Center for Interfaith Dialogue

المسلمون والمسيحيون واليهود اليوم التقارب والتعايش في زمان العولمة

إعداد الدكتور أنس كاريتش

الناشر:

مركز الدوحة الدولي لحوار الأديان

Tel: +974 4486 46 66 • +974 4486 55 54

Fax: +974 4486 32 22 • +974 4486 99 00

P.O. BOX: 19309 • Doha – QATAR

www.dicid.org

التحرير :

حمدي بلكيتش

مقدمة

تتنوع البشرية ويختلف بنو الإنسان ويأتي اختلافهم على وجه الأخص في الدين. وإذا ما شرعنا في الحديث عن علاقات التقارب والتعايش اليوم، فإنه يتعين علينا أن نراعي الحديث عن اختلاف الألسنة والمعتقدات والآراء والأفكار ووجهات النظر. وفي واقع الأمر يجب أن نتساءل، ماذا يعني التقارب والتعايش اليوم؟ وماذا يعني التقارب مع الآخرين في ظل فترة من (التاريخ) توسم بالعولمة؟

سوف أناقش في هذا الكتيب مهمة التأكيد على منظومة التقارب بين المسلمين والمسيحيين واليهود. وإنني أعتبرها من أهم الواجبات اليوم طالما أن الرموز والأفكار والتمثيلات الدينية بين المسلمين والمسيحيين واليهود ظلت في حالة تجاور إلى حد ما لفترة زمنية طويلة للغاية. والسؤال: كيف نحافظ على التقارب والتعايش وننقذه؟ وكيف تضع تصورًا للتقارب يتعلق بحياة البشر ومصائرهم بمعزل عن التقارب بين الرموز والتمثيلات والأفكار؟ في هذا الكتيب سوف نسعى لتقديم إجابات عن تلك الأسئلة.

ملاحظات تمهيدية:

تواجه المجتمعات الغربية المعاصرة مهمة استكشاف جديدة تتعلق بقيم الجوار والتقارب بين الأديان المختلفة ومعتنقيها في عصر يطلقون عليه العولمة. وبما أن أعداد البشر على كوكبنا في ازدياد، فإنه لا بد من ترسيخ التقارب والتعايش. لكن كي نضع تعريفًا موجزًا، ماذا يعني التقارب؟ من منظورنا، فإن التقارب الصحيح يعني ما يلي:
«عِش ودع الآخرين يعيشون بكرامة». أما بالنسبة للبشرية، فإن التقارب بين جميع الأديان أمرٌ شديد الأهمية، وعلى وجه الخصوص أتباع الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام. ومن مصلحة العالم الغربي في يومنا هذا أن يكون في سلام مع الإسلام، وأن يقبلوه باعتباره وريث الديانات التوحيدية التي عرفتها البشرية وأنه جارٌ عظيم لليهودية والمسيحية وأنه مُحاوِرٌ عظيم في منظومة الحوار بين الأديان.

ونسعى هنا إلى لفت انتباه القارئ إلى حقيقة أنه ما كُتب في أوروبا وفي الغرب حول المسلمين باعتبارهم «الآخر» في القرون الثلاثة الماضية، ولا نغفل مفهوم إيمانيول كانط «الضيافة الكونية Universal Hospitality»[١]. وعلى دعوة كانط لإرساء الضيافة مفهومًا في «مجال الحقوق»[٢].
إضافة إلى ذلك نستشهد هنا بعبارات جون وولفجانج فون جوتيه حول التسامح واللين تجاه الآخر والمختلفين عنا. فيقول جوتيه «إن التسامح يجب أن يكون وضعًا مؤقتًا. فالتسامح يجب أن يؤدي إلى القبول. فإن الامتثال لصورة التسامح المحض ضربًا من ضروب المهانة»[٣].

ومن العبارات أيضًا المهمة في نفس السياق، ما قاله الفيلسوف جاك دريدا حول السعي من أجل تكيف أوروبا مع الآخرين حتى تصير أوروبا «أوروبا الأمل»[٤]. لقد حاولنا

في هذه السطور أن نتحلى بالشجاعة الكافية كي نقرأ الصفحة الختامية من كتاب «الجيران Neighbors» لجان تي جروس[٥]. فهذا الكتاب تقشعر له الأبدان. ومن المهم أن نلقي الضوء على هذه الجهود ومئات غيرها، كما سيأتي ذكرها فيما يلي، ومن الجهد الحسن أن نفكر في مسألة «التقارب» اليوم والمعنى المعاصر لكلمة «حدود» وغيرها من القضايا: ومن هو «الآخر»، ولماذا هناك «آخر» ومن هو «الغريب» وما معني الكوزموبوليتانية» اليوم وماذا يعني «الانفتاح على الآخر» ومن هو «جارنا» اليوم وإلى غيرها من القضايا والمفاهيم.

بيد أنه هذه الورقة الماثلة، لا نسعى فيها إلى إجهاد النفس والقراءة في سجالات أكاديمية ومناقشات، رغم ما لها من أهمية. ولكن، الغرض من هذه الورقة إهداؤها بالأساس لقضية التقارب والمؤمنين بها خصوصًا اليهود والمسيحيين والمسلمين في الغرب، حيث يتباهى العالم الغربي بأنه يمثل الكتلة العلمانية في هذا العالم. وبالتالي، فإن الغرض هو إحياء الرغبة في القضية - لدينا ولدى من يطالعون هذه المقالة - من خلال تقديم إجابات عن تلك الأسئلة.

والأسئلة المباشرة فيما يتعلق بهذه القضية تتمثل في الآتي: هل نحن متشائمون إذا قلنا إن العالم اليوم – بنفس الطريقة التي ليست بعيدة عنا وبنفس الطريقة التي عاشتها البشرية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين وخصوصًا في العقود الثلاثة الأخيرة- يتميز بأنه عصر أزمة التقارب، خصوصًا بين الغرب والإسلام؟ هل نحن محقون حين نقول إن ثمة مشكلة عميقة في العلاقات وأزمة انعدام للفهم بين الأديان في العموم؟[٦] هل صارت الأديان غريبة عن بعضها في هذا العالم بالفعل؟[٧] هل من الصحيح أن أجزاءً كثيرة من العالم تشهد تصويت الأغلبية من أجل انتخاب نواب وممثلين سياسيين يقللون من العلاقات مع أتباع الديانات الأخرى عن عمد وبصورة ممنهجة ومع أصحاب الأفكار المختلفة (دينيًا)؟ وختامًا، هل يمكن أن تساهم طفرة الاتصالات اليوم وتيسر طرقًا متنوعة من أجل التوصل إلى تفاهم بين الديانات؟ أو هل نجد أنفسنا اليوم في عصر يتسم بتقنيات تواصل شبكية في خدمة الأصولية التي تسعى إلى بث الكراهية والعداوة بين الأديان، خصوصًا تجاه الإسلام؟[٨]

وثمة إشكالية أخرى ملحة: أي الأطراف كان أكثر تسامحًا وانفتاحًا على العقائد والأديان الأخرى، السلف من أتباع الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام أم نحن باعتبارنا معاصرين وحداثيين؟ هل نحن نشيع التشاؤم – دون مبرر- إذا قلنا إن الأزمة الاقتصادية الجارية هي أزمة أخلاق بالأساس؟

هل هذه الأزمة، التي تتخذ من الإفلاس الاقتصادي قناعًا لها في كل الدول، هل تبدد قطعًا آمالنا في الحصول على بشرية أفضل بعد سقوط الشيوعية مع قدوم الألفية الثالثة؟ أضف إلى ذلك، هل يشهد العالم بالفعل ازديادًا في عدد الحروب؟ ولو حدث هذا ما هي القوى التي تشعل فتيل الحروب وهل بالفعل من الممكن الكشف عن الأسباب التي تقف وراء اندلاع الحروب الدينية؟[٩] هل هي حقيقة أن تجد التلاعب بالحروب اليوم يرافقه التلاعب بما يخص «الآخر» باعتباره مستهدفًا، فهل هو طرف يجب إهانته أو استئصاله؟[١٠] هل الأحكام الأخيرة التي أصدرتها المحكمة الجنائية الدولية لجرائم الحرب في لاهاي فيما يتعلق بجرائم الإبادة الجماعية في البوسنة ورواندا تنبئ عن فشل ذريع يتصاعد يومًا بعد يوم حول إمكانية تحقيق التقارب- فضلًا عن الجوار والتعايش بين الأديان والثقافات والحضارات؟ هل صرنا نخشى حقًا من العالم المعاصر لدرجة أننا نشعر أننا نعيش في أحلك لحظات التشاؤم التي نعايشها منذ زمان وكأننا في نهايات الزمان كما يقول سلافوي جيجيك – الفيلسوف السلوفيني الأصل- في آخر أعماله Living in the End Times.

وفي ختام هذه الملاحظات المبدئية، إن أزمنتنا الحالية ليست حبلى فقط بالمفاهيم المغلوطة ولكن هل من

أنتجتها بالفعل هو نبوءات صراع الحضارات[11] وصراع الثقافات؟[12] فهل منظرو اليوم الذين يتحدثون عن أوجه متعددة من الصراع في الواقع، تساورهم الشكوك بشأن إمكانية عمل تقارب مع الآخر ومع المختلفين عنا اليوم؟

أولًا: مقدمة موجزة عن التقارب بين الأديان التقليدية (الإسلام والمسيحية واليهودية) في الماضي

عندما يتنامى إلى أسماعنا تلك الجَلبة المتداولة في وسائل إعلام اليوم حول الحضارة «اليهودية المسيحية»، في الوقت الذي يُستبعد فيه مفهوم الإسلام والمسلمين باعتبارهم «الطرف الثالث» = الغير، أو أنهم مرادف لحضارة يجري لفظها من معادلة (الحضارة اليهودية والمسيحية والإسلامية)، فإن المسلمين يشعرون بأنهم محرومون من المشاركة في بناء مفهوم التقارب في العصر الحديث. رغم هذا، فإن الماضي يشهد على أن المسلمين كانوا يدركون قيمة ثقافة التعايش والتقارب ومازالوا على هذا بالفعل.

ولا نرغب في هذا الكتيب أن نتحدث عن «العصر الذهبي» للدين والثقافة والحضارة. فنحن ندرك أن هذا التعبير «العصر الذهبي» هو لفظ مراوغ بشدة ومغر. وعلاوة على هذا، فنحن نعي أن «العصر الذهبي» لا يُشكل سوى إسقاط على تفكيرنا الطوباوي الحالم الذي خرج من رحم الواقع المأزوم الذي نعيشه منذ زمن بعيد ولَّى وهو الذي به غرقنا فيه في «رومانسيات» الحب[13]. وبالتالي فإننا حين نتحدث عن «الزمن الذهبي» في أي ثقافة أو حضارة، فإن هذا الأمر يتعلق بضرورة التعامل مع التحديات الكبرى.

وعلى الرغم من هذا، فإن هذه التحفظات ومن بينها تلك التي خرجت من رحم الاتجاه الرومانتيكي في التعامل مع الماضي مازالت تتحدث عن وجود تجانس خاص وتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود، على فترات طويلة، شهد حالات السلم في الماضي. وقد شرع المؤرخون العظماء في أعمالهم في إعادة ترتيب هذه التجانس وتصنيفه. فعلى سبيل المثال، برنارد لويس، وهو مستشرق غير محبذ لدينا كمسلمين، لكنه يقر بأن « الحضارة الإسلامية، تسير عكس الحضارات السابقة، حيث إنها تعد الحضارة الأولى التي يمكن أن نطلق عليها صفة العالمية، من حيث إنها قد فتحت ذراعيها أمام أجناس وأعراق وثقافات مختلفة في قارات ثلاث. فازدهرت الحضارة الإسلامية في أوروبا لفترة طويلة في إسبانيا وجنوب إيطاليا وعلى أعتاب روسيا وشبه جزيرة البلقان. وقد كانت حاضرة في آسيا وأفريقيا وضمَّت الأبيض والأسود والقمحاوي والأصفر.»[14]

وتعليقًا على هذه الرسالة يقول مارشال جي إس هودجسون «إن جذور الحضارة الإسلامية تعد إلى حد كبير هي نفس أصول الحضارة الغربية: ويتجلى هذا في عادة التجارة التي كان يمارسها سكان الحضر في منطقة الهلال الخصيب والتحديات التي فرضها العبرانيون المتدينون والثقافة الفلسفية والعلمية الإغريقية الكلاسيكية. لذا بالنسبة للغربيين (أو بالنسبة لكل من يتقاسمون الآن الثقافة الغربية بصورة أو أخرى)، فإن الحضارة الإسلامية تمثل حضارة شقيقة...»[15]

ويسعنا أن نقتبس مقولات طرحها علماء غربيون ذوو ثقل علمي يؤكدون على رفعة مفهوم ثقافة التعايش لدى المسلمين وعطاء المسلمين وتوفيرهم المأوى لشعوب وديانات (أخرى)، مع احتفاظهم بحياتهم الروحية.

والحقيقة أنه على مر تاريخهم أثبت المسلمون أنهم أكثر قدرة على أن يكونوا جيرانًا يتحلون بالود والأخلاق. ونحن كمسلمين يعيشون في الغرب، نشعر بالفخر تجاه هذه الميراث التاريخي.

وإن مثل هذا التعايش للديانات الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام) معترفٌ به في أجزاء كثيرة من العالم. على الأقل، يمكن للواحد أن يتحدث عن التعايش والتقارب بالنظر إلى ما بعد الحقب التاريخية المؤثرة. فعلى

سبيل المثال، في القرون التي كان يُطلق عليها «إسبانيا المسلمة» كانت نموذجًا تعايشيًا منسجمًا بين أتباع الإسلام واليهودية والمسيحية.[١٦]

وينطبق نفس الشيء على وادي النيل، شريان الحياة في مصر. وكذلك في التاريخ الممتد لسورية وفلسطين والعراق ولبنان والأناضول والبلقان وغيرها من المناطق. لقد اندمج أهل الكتاب (اليهود والنصارى) في دول الخلافة الإسلامية الكبرى. فلم يكونوا منبوذين منها بالطريقة التي يعاني فيها المسلمون اليوم من النبذ واللفظ خارج الغرب أو ما يُسمى بالحضارة «اليهودية المسيحية»، وكأن المسلمين لا يعترف بهم شريكًا آخر في تلك الحضارة، ولا حتى من المتوقع أن يتم هذا على المدى القريب.

وفي هذا المقام، فإن المسلمين صاروا يشعرون بالقلق حيال صمت اليهود والمسيحيين عن هذا اليوم. فإنه يتوقع من اليهود والمسيحيين أن يرفعوا أصواتهم مطالبين بالاعتراف بحضارة يهودية ومسيحية ومسلمة من أجل تحقيق تعايش وتقارب من أجل السلام والاعتراف (بالآخر) والتسامح. ذلك لأن وجود حضارة على هذه الشاكلة من شأنه أن يرسي المشروع العلماني للعولمة بروح إيجابية وأكثر إنسانية.

وإضافة إلى هذا، فإن رفع اليهود والمسيحيين مطالبهم بهذا يعد ردًا للجميل للمسلمين. وحين نتحدث عن المسيحيين (النصارى)، فإنهم يجب عليهم إدراك أنه في ظل ازدهار المشرق الإسلامي، لم يدمر المسلمون «المشرق المسيحي». كما أن اليهود لم يكابدوا في ظل دول الخلافة الإسلامية الاضطهاد حيث كانت مركزًا لتطور غالب عقائدهم.
وبالتالي فإن جماعة الكابالاة لم تظهر إلا في ظل الفترات العظيمة التي ساد فيها السلام بين اليهود والمسيحيين من جهة واليهود والمسلمين من جهة أخرى. ففي هذه الحقبة من التاريخ كتب الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون جل أعماله. وللاطلاع على مزيد في هذه المسألة يمكن مراجعة أعمال آدم مز.[١٧]

وحتى حين كان المسلمون فاتحين، كانوا على دراية بمنظومة التعايش والتقارب وأهميتها. فيقول الفيلسوف الأمريكي من أصل إيراني سيد حسين نصر، (إن «نموذجا» إسبانيا والأناضول يصلح كنموذج مفارقة تبادل فيه الإسلام والمسيحية الأدوار في ذلك الوقت. ففي إسبانيا تم قتل جميع المسلمين وأرغموا على التحول عن الإسلام ولم يتبق فيها أي مسلمين اليوم بينما مازال مقعد الكنيسة الأورثوذكسية موجودًا بتركيا.)[١٨]

وفي كثير من كتبه يذكر المؤرخ الكبير خليل إناليك، وهو أستاذ التاريخ المخضرم في جامعة شيكاغو أنه بعد انفراط عقد الإمبراطورية العثمانية ظهرت أكثر من ٢٠ دولة، كان المسيحيون فيها يشكلون أغلبية. وهؤلاء المسيحيون لم يعيشوا فقط في ظل الإمبراطورية العثمانية ولكنهم حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم.[١٩] وإن مثل هذا النموذج التعايشي ما كان ليتبلور إلا بإدراك الإمبراطورية العثمانية للأنماط المتوارثة عن التقارب بين الأديان. فبالطبع، يدرك المرء أن الأنظمة المختلطة ليست مثالية ولكنها تقدم إطارًا واضحًا للتعايش والحفاظ على دين الفرد وموروثاته.

من المهم في يومنا هذا أن نتناول الحديث عن الحقب المنصرمة عندما وعى المسلمون والمسيحيون واليهود أنهم جيران. ومن المهم أن نذكر في هذا السياق الغرب بعد أهوال الحربين العالميتين في القرن العشرين، حيث تم محو اليهود من أوروبا أو حينما كان مسلمو البلقان على شفا الاختفاء ما بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٩.[٢٠]

بالطبع إنه من المستحيل أن نُعيد الماضي كما لا يمكن البكاء على اللبن المراق. لكن من المهم أن نذكر الأجيال الحاضرة بما واجهه أسلافهم من المسلمين والمسيحيين واليهود.[٢١] وفي هذا الإطار، فإن كثيرًا من الكتاب المسلمين يتحدثون عن «مواجهة بين الإسلام والأديان الأخرى».[٢٢]

لقد كان التقارب والتعايش بين الإسلام والمسيحية واليهودية وبين أتباع الديانات الثلاث يقوم على مبادئ عدَّة. أولها الإيمان بأن الله هو خالق البشر أجمعين. وبالطبع، فإن المسلمين والمسيحيين واليهود لم يعترفوا بعقائد بعضهم بعضًا رغم إقرارهم بأن الله هو الخالق. وثانيًا، فإنهم أقروا بمنظومة التعايش. وبسبب هذا، قُتل الملايين من البشر في القرن العشرين سواء على التراب الأوروبي (مثل اليهود) أو في مقاومة الكولونيالية الاستعمارية الغربية (المسلمون الجزائريون) على سبيل المثال.

إن التعايش والتقارب بين المسلمين والمسيحيين واليهود اليوم ينطوي على نوع من العرفان. ولو قليل. فعلى سبيل المثال، فإن الإقرار بأن أي جارلنا هو إنسان مثلنا، ويتمتع بنفس حقوق الإنسانية مثلنا، وأنه من صنع الله.. فحتى جيراننا الذين لا يؤمنون بما نؤمن أو اللاأريديون/ اللادينيون يستحقون أيضًا إقرارًا بحقوقهم وذلك لأنهم يلقون علينا السلام ونعم نبادرهم. وقد أطلق عالم الدين الأزهري الشهير الشيخ محمود شلتوت عبارة «الأخوة في الإنسانية». فيقول إن المسلمين وغير المسلمين إخوة، وإن وضع الأخوة هو الحالة الوحيدة التي يمكن فيها تعزيز السلام والتعايش السلمي».[٢٣]

وبحسب ما قاله جاك جوودي، فإنه للمسلمين «كان لديهم الكثير» الذي يمكنهم تقديمه إلى أوروبا والغرب، «فبعد طردهم من أوروبا وبعد قرون عادوا إلى أوروبا لكن ليسوا في صورة غزاة فاتحين وإنما في صورة مهاجرين. وفي الصورتين، فإن المسلمين كان لديهم ما يقدمونه لأوروبا. فقد أسهموا في ازدهار الحياة الفكرية والعلمية وفي النهضة الأوروبية ذات نفسها. والآن، فإنهم يُشكلون جزءًا من القوى العاملة في أوروبا تُعوض النقص في سكان أوروبا. فلا يمكن الاعتداد بالإسلام على أنه «آخر» لا في الماضي ولا الحاضر. وحتى في آسيا، فإن تقاليد المسلمين تتشابه مع تقاليد المسيحيين واليهود. ويحضر المسلمون في المشهد الأوروبي بصورة كبيرة.»[٢٤]

ثانيًا التعايش في عالم الأيديولوجيات والآلة وصعود العالم الإنساني

بيد أنه اليوم توجد أزمة ملموسة تتعلق بالتقارب بين الأديان. مثلما توجد بالضبط أزمة في التعايش بين الإنسان والطبيعة. فالحربان العالميتان الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) تزامنتا مع حرب العصابات والقوات غير النظامية التي شنتها البشرية ضد الطبيعة والبيئة. ويتفق علماء البيئة حول هذه النقطة.

إن أزمة التعايش والتقارب سُنةٌ معمول به منذ زمن طويل. ومن منظورنا، فإنها مشكلة ذات جذور أكثر عمقًا. وهذه نقطة يجدر بنا مناقشتها إذا ما كنا نرغب في تعزيز فرص التعايش من أجل الوصول إلى تفاهم مشترك بين الأديان في عالم اليوم ولا يقف عند هذا الحد بل نتجاوزه لنصل إلى أوجه أخرى من التفاهم.

إنه عندما نتحدث عن التعايش والتقارب بين المسلمين والمسيحيين واليهود، وحول التعاون الإيجابي في مجالات الحياة غير الدينية والدنيوية الأخرى لهذه الديانات الثلاث، فإنه من الضروري أن نسترجع أنه على مدار القرون الثلاثة الأخيرة طرأت على البشرية تحولات روحية كبرى.[٢٥] وهذا يعني أن أي حديث حول التقارب والتعايش لا يمكنه أن يتجاوز «الإرث التاريخي» ولا الآثار المعاينة للجانب المظلم من العصر الحديث ولا تبعات انتصار العلم الكمي ولا تطبيقاته متعددة الأوجه. وأنه منذ نهايات القرن الثامن عشر فإن التوجهات العلمانية وأنماط اصطناع الطرائق العلمية مارست ضغوطها على الإسلام والمسيحية واليهودية كي تحصرها في الهوامش. وخصوصًا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فإن هذه التوجهات الأيديولوجية خرج من رحم شعاراتها وبرامجها ومنطلقاتها ثورات وقوميات ودعوات اشتراكية وإنسانية وشيوعية وفاشية وغيرها. ولقد دخلت أفواج من البشر التاريخ خلال القرون الثلاثة الأخيرة. فهذه الجموع كانت بحاجة إلى تنضوي تحت

أيديولوجية وتتفاعل معها. ونتيجة لهذا، وقعت تحولات عميقة خلَّفت آثارًا سلبية على الأنماط التقليدية للتقارب بين الأديان.

إن العلوم الاجتماعية المعاصرة نجد فيها أن النقد والنقد الذاتي يتفقان على أنه منذ القرن الثامن عشر فإن الديانات التقليدية مثل الإسلام والمسيحية والإسلام ومنظوماتها الأخلاقية في تراجع بشكل أو بآخر وفي أحيان تصل إلى حد التشوش التام وعلى شفا الاختفاء. لكن ليس خفيًا علينا أن نعلم أن كثيرًا من الكتاب والمؤلفين يرون أن العهد المعاصر هو «زمن إنكار الإيمان»[٢٦]

لقد شهد الغرب منذ القرن الثامن عشر عددًا كبيرًا من الأيديولوجيات الانتصارية والعلوم الكمية حيث قدمت هذه العلوم تفسيرات للكون والإنسان. فكل أيديولوجية من تلك الأيديولجيات مجَّدت «رجلها» وواضعها سواء على حساب الإيمان بالله أو الناس أو الثقافات والحضارات الأخرى. كما أن النظريات العلمية التي ظهرت منذ القرن التاسع عشر فسرت العالم في إطار أيديولوجيات متعددة ومتنافسة. فما نظرية التطور سوى تمجيد للإنسان على حساب كائنات حية أخرى؟ وما النظرية البيولوجية سوى تقديس عرق بشري عن الآخر أو نوع من الكائنات على حساب الأخرى؟ فكل هذا له آثار بالغة السلبية على الصور التقليدية للتعايش والتقارب.

إن تلك النظريات العلمية الحديثة مثلت ومازالت تطبيقًا عمليًا متناسقًا للجوانب المظلمة من الأيديولجيات الحداثية بروحها الانتصارية في الغرب. وعلاوة على هذا، فإنه في الواقع العملي لقد هددت تلك النظريات العلمية التعايش بين الإنسان والحيوان (نظرية التطورانية) وتعايش الإنسان مع أخيه الإنسان (Biologism) وعرضت كل هذه الأنماط التعايشية للخطر. لكن يظل التعبير الأبرز للتطبيق الحي لتلك النظريات العلمية في العصر الحديث هو انتشار الآلة والتقنية.

وحتى قبل أن تتعرف البشرية على آلات معينة فإنه لم يكن حتى القرن الحديث تم اختراع أجهزة تمنح الإنسان قوة فوق قوة بشر آخرين وفوق الطبيعة. لقد صارت الآلات المخترعة حديثًا «أصدقاء مقربين» للإنسان المعاصر والبشرية في العموم. فالآلة هي ثمرة التزاوج بين الأيديولجيات والنظريات العلمية في الحقبة المعاصرة. لذا صار بين أيدينا معضلة من ثلاثة أضلاع هي الأيديولوجية والعلم والآلة، وفي ظل ازدهارها نشأت أزمة التعايش والتقارب بين الأديان، ثم أعقب هذا الأزمة أزمة أخرى بيئية.[٢٧] حيث إن تلك الأزمة ما انبثقت إلا بسبب الانتقاص من أهمية تعايش الإنسان مع الطبيعة (لكن هذا الأمر لن نتناوله في هذه الورقة)، لكن هنا يجب أن نتساءل ماذا حدث مباشرة بعد القرن الثامن عشر حين نشأ هذا العالم الإنساني وماذا حدث للتعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود وماذا حدث لثلاثية الأيديولوجية والعلم والآلة؟

إن انتصار الأيديولوجيا والعلم والآلة أدى إلى إضعاف الأديان التقليدية وخفوت منظومتها الأخلاقية وتهميشها. فصار الإنسان وليد الحقبة الحديثة لم يعد يبني علاقاته وروابط التعايش على أسس الاعتقاد أو الإقرار بوجود الله أو على مبادئ الوحي.

وكي نكون أكثر وضوحًا: فإنه في أعين العصر الحديث الذي يتسم بالقبح، فإن الأيديولوجيات الصلبة فيه لتيودور أدورنو وماكس هوركهايمر[٢٨] كانت شديدة النقد حيث لم يعد الجار هو المخلوق الذي صنعه الله ولا نحن جيرانه. وفي النهاية، صار جارنا هو ثمرة التخريب الأعمى للتطور.

لقد كانت الحربان العالميتان اللتان اندلعتا في القرن العشرين أحداثًا شديدة التعقيد والفظاعة ولا يمكن شرحها في كلمات مبسطة، لكن من المتيقن أن الأيديولوجيات التي وقفت وراءها حملت ورائها أصداء الآراء الانتصارية الكبرى للعصر الحديث ونظريتيه

العلميتين التطورانية والبيولوجية.

لم يشهد التاريخ أن علاقات التعايش والتقارب تعرضت لمثل هذه الدرجة من التخريب مثلما حدث في القرن العشرين. وينبغي أن نشير مجددًا إلى أنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية اختفى اليهود تقريبًا من التربة الأوروبية بسبب قتل الملايين منهم. وتعرضت الرابطة العريقة من التعايش بين اليهود والمسيحيين التي تأسست على مدار قرون في أوروبا، إلى الاختفاء تقريبًا. وكما يقول جراهام إي فولار، حتى في «المشكلة الفلسطينية المعقدة اليوم ..فإن جذورها لا تعود للإسلام بل للاضطهاد الغربي والمجازر التي أقيمت ضد يهود أوروبا.»[٢٩]

إن من بين الآثار المترتبة على الحرب العالمية الأولى أن الواحد لا يمكنه أن يُحصي معاناة المسلمين في البلقان منذ حقبة التسعينات حتى اليوم. فمن جميع الأوجه، تلك المعاناة تُذكرنا بمعاناة اليهود في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية التي خلَّفت آثارًا كارثية على منظومة التعايش في الشرق الأدنى أو الأوسط. وإن استخدام كلمات مثل «مسيحيون» و»يهود» و»مسلمون» في هذا السياق لا تشير إلى أنماط المؤمنين بهذه الديانات بل أيضًا إلى التفريعات العلمانية التي انبثقت عنها. لكن تلك التفريعات العلمانية لم تنبت من فراغ بالكامل. فهي مازالت تنبثق بطريقة أو بأخرى من خلال استلهام معان ومرادفات من الإرث الوحيي للديانات الثلاثة. لكن يجب أن نقول إن هؤلاء العلمانيين الخارجين من رحم الدين التقليدي لم يُظهروا أي شيء سوى التنصل من عاداتهم. ورغم هذا نجدهم مازالوا يعملون على توليد معان ثقافية وتراثية وحضارية وإشعاعات من اليهودية والمسيحية والإسلام بصورة أو بأخرى. لذا وجب علينا أن نتساءل عن جدوى إضعاف روابط التعايش بعد الحرب العالمية الثانية، فالسؤال الذي يجب أن يُطرح بصراحة: من هو «الآخر» في أقل مرتبة للكلمة، اليوم؟ فإنه حينما نتحدث عن «الآخر» في أوروبا وفي الغرب اليوم، فإن الرسالة المفهومة ضمنيًا أنه من غير المرغوب أن يكون الإسلام لنا جارًا.

وكما أشرنا بالفعل، فإن كثيرًا من الحالات كان «الآخر» يُحمل على الجانب الحافل بالازدراء للكلمة والإجابة عن هذا السؤال تختلف من موضع للآخر. ففي إسرائيل، الآخرون هم المسلمون والمسيحيون. وفي غالبية الدول ذات الأغلبيات المسلمة يمثل المسيحيون واليهود فيها الآخر، بينما حين نأخذ دولتين مثل لبنان ومصر على سبيل المثال فإنهما استثناء إيجابي عندما نتناول السلوك تجاه المسيحيين. أما في أوروبا فإن اليهود والمسلمين هم «الآخر». أما البلقان ككل، ظل لعقود يشهد محاولات لطمس المسلمين ليكونوا في صورة «الآخر» المنبوذ. وقد كانت تلك المحاولات حافلة بإراقة الدماء.[٣٠]

ومن أجل هذه الدراسة الماثلة بين أيدينا سيكون من المفيد أن نستشهد ببعض الدراسات حول: لماذا المسلمين منذ القرن الثامن عشر يشعرون أنهم «الآخر»؟ ولماذا تم «تكييف» صورتهم وتحويلها إلى ذلك الآخر المنبوذ؟

يوجد عدد من الأعمال التي تجيب عن هذا السؤال. فيقول نورمان دانيال في كتابه «الإسلام والغرب» Islam and the West حول صناعة صورة المسلمين.[٣١] بينما على الجانب الآخر، نجد بيرنارد لويس ألف كتابًا بعنوان «الإسلام والغرب» Islam and the West لكنه يحمل غايات مختلفة عن نورمان دانييال. لقد صور بيرنارد لويس في كتابه الإسلام باعتباره قوة لا تتوفر لديها الرغبة في إقامة علاقات مع العالم حولها، حيث يسعى الكاتب لإبراز أن المسلمين صاروا «الآخر» بسبب ما فعلوه في أنفسهم وأنهم السبب الرئيس في هذا.

لقد أُلفت عشرات الأعمال تتحدث عن المواجهة في منطقة جيوسياسية واحدة من العالم وهي الغرب[٣٢] من جهة والإسلام من جهة أخرى. أما الجانب الآخر هو الجانب الإسلامي فهو «الآخر».[٣٣]

ونذكر في هذا المقام أن الأعمال التي تصف «الغرب» بأنه يقف في مواجهة الآخر، وأن الغرب هو كل شيء فهو الثقافة المتعالية والفوقية. ورمز العلمانية والرخاء ورأس كل ما هو إنسانيّ! وفي مثل هذه المواجهات بين الغرب والإسلام يظهر الإسلام وكأنه يثغو بالضياع ولا يتحدث إلا ببعض العبارات المقدسة غير المتماسكة.[٣٤] أيضًا، إن بيئة هذه الأدبيات قد تجد إنكارًا لحق التعايش إلا قبل أن تقدم فروض الولاء للنموذج الغربي وترتدي عباءته. فالمقالات والكتب الوفيرة التي كتبت بالتزامن مع اتجاهات الحديث عن «الإسلام الوسطي» يتناول كثيرا الحديث عن «استنساخ الإسلام» عند العمل به[٣٥]. إن هذه المشروعات المعنية «بطبخ الإسلام» تبث نوعًا من القلق في قلوب المفكرين المسلمين التقليديين. وعلى مدار الخمس عشرة والعشرين سنة الماضية شهدنا ما يُعرف بالإسلام الوسطي المعد بطريقة «الوجبات السريعة».

إن الناظر في النماذج الرئيسة من أمهات هذه الأعمال يجد أنها تسبغ على الإسلام أوصافًا مثل «الآخر» وتقدم مخططات عن التاريخ يظهر فيها الإسلام على أنه «الآخر». وعندما يقترن الإسلام مع الغرب في جملة، فإن الإسلام يصير بلا معنى. وبالنسبة إلى بيرنارد لويس، فالإسلام يُشير إلى الفلاحين المصريين أو الجمهورية التركية الحديثة أو الثورة الإيرانية أو الأنظمة العربية البعثية الاشتراكية السابقة أو رائحة الكباب.

وفي ظل تلك الأجندة الغربية المناهضة للإسلام كما هو مفترض فإنه يتضح من غرضها وغايتها هي أن تدفع القارئ بإزاء استنتاج أن الإسلام حجر عثرة ضخم وأنه الآخر الخطير غير المرغوب فيه، فهو إسلام لا يعرف التعايش. إن مثل هذه الأدبيات تحفل بالكثير الذي يجسد الإسلام على أنه الآخر ويتضح أنها «طُبخت» ليكون الإسلام بهذه الصورة. وحين يأتي الأمر للحديث عن سكان البلقان، فإن كتاب ماريا توداروفا Imaginig the Balkans كتاب مفيد في سبيل فهم هذا السياق.[٣٦]

إن من أبرز من أشاروا إلى التيار السائد في الفكر الغربي الذي يصف الإسلام بأنه يأبى التعايش كانت ماريا تودراروفا التي أشارت إلى هذا بشكل صائب. فإن أولئك الذين يريدون هذا الرأي ألا وهو أن الإسلام والمسلمين لا يمكن أن يكونوا جيرانًا، مكثوا زمنًا طويلا يبذلون الجهد لإخراج الإسلام من المحور الثقافي والحضاري للعالم المعاصر. وإن هذه العملية الفكرية يمكن معاينتها بشكل خاص حين يُحرم الإسلام من الاعتراف بأنه الطرف الثالث الشريك والمعبر عن الحضارة اليهودية والمسيحية والمسلمة. فتقول « إنهم لا يريدون أن يكون الإسلام جارًا. لكنها تأمل في أن يأتي الزمان الذي يشهد الحديث عن الجذور اليهودية والمسيحية والمسلمة للثقافة الغربية. فتقول آسفة : لقد ذهبت الأيام حين كان ليبراليو روسيا يدعمون عن قناعة ادعاء روسيا أنها صاحبة انتماء أوروبي في مواجهة الأتراك البربريين». لم يعد هذا مقبولًا بالفعل لدى الأجيال الجديدة التي عليها أن تُظهر تجاوز الانحياز المسيحي وأن تتخذ خطوة تجاه التغلب على الإرث القائم على معاداة السامية، من خلال استدماج صفة جديدة لجذور الثقافة الغربية: اليهودية المسيحية. لكن الواحد قد يتساءل كم يستغرق هذا قبل أن نبدأ بالحديث عن الإرث اليهودي المسيحي الإسلامي وجذور الثقافة الأوروبية.[٣٧]

فهل الإسلام والمسلمون أمام فرصة لاكتساب صفة الجار وخوض تجربة العيش بأجواء التعايش في أوروبا والغرب اليوم؟ وعند البحث عن إجابة عن هذا السؤال، فإن المرء يجب أن يضع في اعتباره ما يلي أنه حتى سقوط الشيوعية في عام ١٩٩٠ وسقوط حائط برلين، فإن الأحزاب السياسية للجناح اليميني عمدت في مشروعاتها السياسية وبرامجها الأيديولوجية وظهورها الإعلامي إلى رسم صورة سلبية عن المسلمين المهاجرين داخل بلدانهم وعن المسلمين حول العالم. إنه يتعين على المرء أن يكشف عن الآثار المباشرة لهذا النهج في الدول الأوروبية. وعندما يأتي الأمر للحديث عن المهاجرين والعمالة المسلمة فإن هذه

العواقب مُشاهدة من بين أشياء أخرى ويمكن تلخيصها فيما يلي : ١) معدلات مرتفعة من الانحياز ضد المسلمين ٢) التمييز ضدهم في الوظائف ٣) صورة مشوهة عن المسلمين في الإعلام ٤) وقائع اعتداء وعنف ضدهم و الانتقاص من ظهور نخبة مسلمة يمكنها الدفاع عن حقوق المسلمين من خلال الوسائل القانونية المعمول بها في أوروبا ٥) التقليل من أهمية الدمج الأهلي للمسلمين في الاتحاد الأوروبي ٦) تهميش المسلمين في التعليم والفنون والعلوم والسياسة وإلى غير ذلك.[٣٨]

ثالثًا: ما هو التقارب بين أتباع الديانات والأديان في عصر العولمة اليوم؟

وفي هذا المقام، فإننا نشير بالأساس إلى التقارب والتعايش بين المؤمنين وأتباع الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام في الماضي والحاضر. لكن دعنا في البداية نقول كلمات يسيرة ماذا يعني التعايش بين أتباع ديانات مختلفة. وإنني على ثقة أن الفقرات التالية ستفيد أصدقاءنا في الغرب. وبالمفهوم الواسع للكلمة، يشكل التعايش بيئة ودية تساهم في مد الجسور بين فئتين من البشر أو أكثر في التعاون على الخير. لهذا فإن مفهوم التعايش يتجلى في ثورة الطيبة الإنسانية. والتعايش ليس شيئًا «علميًا» يُشبه بعض «الحقائق العلمية» وتاريخ الاكتشاف المدون عليها. وبالتالي فإن التعايش لا يمكن تعريفه على أنه تركيبة كيميائية، ولا يعتد بها أداة أو مفهومًا، تم إعداده في أروقة معهد علمي قبل أن يكون أداة بين أيدينا. إن التعايش يقف فوق الجميع حيث إنه يوفر لجميع الشعوب والمخلوقات السلام الروحي والسلامة البدنية من الأذى كي تستقيم الحياة. فالتعايش يجمعنا قبل أن نعتنقه نحن. لذا فإن التعايش عبارة عن مساحة روحانية ونفسية ومادية تظهر في مجال كامل من العلاقات الأخلاقية بين الشعوب. فبيننا وبين جيراننا تقف المنظومة الأخلاقية للتعايش.

إن أفضل ما يمكن أن نقدمه كجيران هو أن نهادي بعضنا بقيمة التعايش. فالتعايش مثل الهواء والأرض التي نقف عليها بأقدامنا. فهو يكمن في الحرية المسؤولة للقرارات الإنسانية حول العيش في سلام مع أناس آخرين. وبالتالي فإن التعايش لا يمكن أن يتحقق من خلال سن قانون يشبه القوانين البرلمانية الحديثة. ففي إطاره لا يوجد طرف قوي أو طرف ضعيف. فالجيران يقفون على منظومة التقارب والتعايش من أجل الخير ومن أجل جعله ساميًا. ولهذا السبب فإن التقارب ليس مشروعًا عقلانيًا بالأساس وكأنه تأسيس لمصنع روافع كهربائية! بل إنه منظومة روحانية يرسي الأسس ذاتيًا، شريطة أن يمنحه أصحاب الأخلاق الفرصة ويفسحوها أمامهم.

إن التقارب بين الأديان لا يتم فيه «التوسط» على يد أولئك المشاركين فيه، فالتقارب هو ثمرة التوافق الأخلاقي والتنشئة الأخلاقية. فتلك التنشئة والأخلاقوية تحمي الآخرين وتشكل درعًا يحميهم. وعلاوة على هذا، فإن التقارب يُشبه حوارًا حرًا ومهذبًا. فالحوار المهذب يوجه نفسه تلقائيًا. فإذا ما بدأ المحاور أن يهيمن على الحوار، فإن مثل هذا الحوار يتحول إلى شيء يُشبه استجواب الشرطة. بالطبع يمكن أن يكون التقارب مُقربًا لكنه لا يقيم صلة قرابة فليس بالضرورة أن يكون الجار ابن عم. فالجوار لا تعود منه منفعة مادية أو شراكة، ذلك لأن صورته الحقه لا تعني جني الأرباح المالية لأي شخص. بل إنه يُسهم في تحقيق الرخاء بما فيه الرخاء المادي.

إن القدرة على تحقيق التقارب والتعايش يعد سمة من سمات الجوار، فالجار يصير هنا شخصًا «كزرع في الأرض». فالجار هو من يعيش بجوارنا وفي نفس الشارع والمدينة والوطن. إن التقارب مسؤولية أخلاقية. فنحن نتقابل مع الجار ونتبادل التحيات ونتصافح وأحيانًا نتزاور لتبادل الآراء حول العالم والحياة. فمن خلال الحوار معاً يمكن تحقيق التعارف والاطلاع على اللغة والمزاج الروحي. وإن مثل هذه المشاركة في مساحة التقارب لا تشكل استحواذًا، بل على العكس، إن التقارب لا يعني الابتعاد ولا الحرمان،

فلا يمكن لفصيل من الأسماك أن يسيطر على المحيط بل يشكل جزءًا منه. وعلاوة على هذا، فإنه على مر السنين يقف الجيران وجهًا لوجه للتعامل مع الأوضاع الحدودية للبشر كما يقول كارل جاسبر. فالشعوب المتجاورة تتشارك الفرح والاحتفالات الدينية المختلفة ويهنئون بعضهم بعضًا ويتزاورون ويتعايدون ويودعون بعضهم بعضًا. فهم متشاركون في المصير الإنساني، على مر الزمان وبعدد دوران الليل والنهار. وبالتالي، فإن التقارب ينشأ بإعتباره مؤسسة روحانية وبلا مصلحة مادية ولا تمليها مصالح براجماتية ولا غاية منها سوى تحقيق الأخلاقوية التي تدعونا لاحترام الكرامة الإنسانية للآخر. وبإيجاز، فإن التقارب يعني: «عيش حياة كريمة وترك الناس يعيشون حياة كريمة».

إن الغرب الذي يمارس غطرسته اليوم يجب أن يعلم أن التقارب والتعايش الذي تحقق بين أتباع الديانات الثلاث فيما مضى تميز بالاحترام الكبير للفروق البشرية والمعتقدات. فبيت الجار لم يكن «ساحة مفتوحة» يُدخل إليها خجِل وبلامبالاة.

إن التعايش والتقارب ينبنيان على المراعاة والتقدير والاحترام. فابنة الجيران هي ابنتنا. ولها مكانة الابن وإن عرضها من عرضنا. كما أنه لا يعني إلغاء الهويات المختلفة أو محوها. بل على العكس، لقد كان التقارب فيما مضى يقدم اعتبارًا كبيرًا ويكن تقديرًا للجوانب المتعددة من الخصوصية المتعلقة بالمعتقدات الأخرى والعالم الآخر. والجوار يعني أيضًا أنه لا يمكننا توجيه أي سؤال لجارنا لأن له علينا حق أن يخوض تجربة الاعتقاد بنفسه وعلاوة على هذا فإن التقارب يعني أن الجار ليس «أداتنا» التي نستهدفها من أجل «تبصيره» أو «الارتقاء بثقافته» أو تحويله ليكون مثلنا أو «استنساخه» وفقًا لنموذجنا.

إن نظرتنا للجار يجب أن تكون مجردة مثل رؤيتنا «لتمثال زجاجي» صغير أو «شخص عار» دون أن نراه بطبقة الدين والمعتقد والأفكار التي يعتنقها. لذا فإن التقارب لا يجب أن يقوم على التعايش الذي يطبق الحوار الراقي وإنما الصمت الراقي أيضًا. علاوة على هذا، فإن التقارب يعني اجتماع الشعوب في صمت. أي أننا نحترم جارنا في حقه أن يكون معنا وأن يحتفظ بخصوصيته. ولا ينبغي أن ننقب بالقوة من خلال سبر أغوار روحانيته وخصوصيته ومواجهته للحياة أو الموت.

إن التقارب بين الشعوب والأديان مرآة لبلوغ الثقافات المتحضرة، خصوصًا في الحضر والمدن. والذي نقصده في هذا المقام أن التقارب بين أتباع الديانات الثلاثة نشأ في المدن الكبرى مما أتاح فرصة أن يُترجم ويظهر على مستوى عالمي. وعلاوة على هذا، فإن التقارب بين أصحاب المعتقدات المختلفة منظومة أخلاقية رفيعة تبنتها الأديان التقليدية القديمة حول العالم. وإضافة إلى هذا فإن التقارب هو أفضل ثمرات التراث الإنساني الذي يستحق أن نطلق عليه تراثا.

وماذا يكون التراث إذن إن لم يكن الإرث التراكمي لدين الإنسان وأخلاقه وأدبه وفلسفته ومعماره وحياته الروحانية التي تظل تخاطبنا بعظمة الماضي وتنبئنا به! إن ما يُراد من كلمة التراث لا يجب أن تُفسر بفهم شعبوي؛ وإنما يجب أن تشير إلى العادات والتقاليد وأنماط الفكر المتوارثة وما يشبهها.[٣٩] وكي نضعها بأسلوب أوضح، «إن التراث يمكن أن يعتبر موطن المبادئ التي تربط الإنسان بالسماء ومن ثمَّ الدين...»[٤٠]

إنه من الممكن أيضًا أن نجادل فنقول إن التقارب يعد واحدًا من الضروب المهمة التي استلهمناها من تراث المجتمعات السابقة التي اتسمت بالتنوع الثقافي ومتعددة العلاقات. وباعتباره منظومة روحية وأخلاقية فإن مبدأ التقارب أوثق عرى للناس من منظومة الدولة. فالتقارب يُستحضر كي يحافظ على كرامة الناس والآخر والمختلف من خلال الأخلاقوية والامتناع عن ممارسة العنف. حيث يساعد التقارب على الانفتاح بيننا وبين الآخرين. كما أن

التقارب يعد منظومة أخلاقية ربما تُستأمن للحفاظ على الأرواح في التاريخ أكثر منه في الدول. فاللغة العربية تحفل بأمثلة ومقولات مأثورة عن الجار والقريب حيث تقول الجار ثم الدار أو جارك القريب ولا أخوك البعيد. وغيرها من الأمثلة.[٤١] لهذا السبب فإننا نقول إن التقارب أمر محفور في قلوبنا اليوم عما مضى وأنه من الأجدر بنا أن نتعاون لنرسخ تقاربًا صحيحًا يضاهي ما كان عليه الأسلاف.

رابعًا: الله - مصدر تقارب بين الأديان والمؤمنين

عندما يتعلق الأمر بميراث التقارب بين الأديان المختلفة ومعتنقي الأديان ينبغي أن نراعي المراتب التالية التي يجب علينا طالما نعيش في الغرب أن نتعلمها منذ الصغر وأن تنقش في عقولنا في عمر مبكرة:

أولا: حين يفكر معتنقو الأديان في التقارب، فإنه يلزم دومًا أن يستدعوا الحقيقة التي تنشرها كل الأديان التقليدية وهي أن الله موجود. فالتقارب بين اتباع الديانات الثلاث في دول الخلافة السابقة كان يتأسس على مبدأ الإيمان بالله خالقنا جميعًا. وأن الله هو الله قد جعل البشر جميعًا سواسية. فالخالق واحد والمخلوقات متعددة. وبالتالي، فإن جميع الخلق ينعمون بالتقارب من خلال الإيمان بالله، فهو رب العالمين.[٤٢] ولا يوجد سبب واحد يستدعي عدم الإيمان بالله الذي حث خلقه على التقارب. فمن خلال تلك المنظومة يكون الله شاهدًا على جميع خلقه. وإضافة إلى هذا، فإننا نستمد التزاماتنا المتعلقة بالتقارب من خلال التعامل مع أناس من مختلف المعتقدات (وكذلك الذين لا يتبعون أي ديانة)، ومن خلال استحضار حقيقة أن رب الناس واحد. «فعبادة الله تمنح الحب والحب به ذراعان الله والجار»[٤٣]

ثانيا: إن المشاركة في تحقيق التقارب ينطوي على إدراك إنساني مشترك. يعني الاعتراف بالآخر والمختلف وأن البشر يتمتعون بنفس الحقوق المتعلقة بالحق في الحياة والحرية والشرف والمعتقد والوعي والحق في الإنجاب. وإن المسلمين يشعرون بالفخر لأن التراث الإسلامي من العقيدة يشدد على هذه الحقوق العالمية الستة التي يشهد المسلمون بها على أنفسهم وللآخرين مثل اليهود والمسيحيين والصابئة وأصحاب المعتقدات الأخرى المختلفة.

ثالثًا: على الرغم من أن التسامح يعد جانبًا مهمًا بصفة استثنائية، فإنه بالتقارب نتجاوز من مرحلة التسامح إلى التعايش من خلال قبول الآخر واحترام حقوقه ومعتقداته الروحانية وأرضه.

رابعًا: إن التقارب بين الأديان يرقى إلى مرتبة وطن نقيم فيه بكرامة وعلى احترام متبادل من النزاهة الإنسانية. إن الاحترام المتبادل يقوم على قاعدة ذهبية: «عامل كما تحب أن يعاملك الناس».[٤٤]

خامسًا: ليس فقط الناس هم الذين يحق لهم التقارب معنا، ولكن كل شيء بما فيها النبات والحيوان والطبيعة. فكل مكوناتها جيران لنا. والسماء بل إن حتى نجوم الثريا تذكرنا بقوانين الأخلاق في أنفسنا (عندما نتسامى) كما يقول إيمانيول كانط في سياق مختلف.

سادسًا: إن الاعتراف المتبادل يعني الإقرار بحق الاحتفاظ بالفروق الروحية والمادية. وينبثق من هذا قاعدة تقوم على أن التقارب يقوم بين المختلفين، ويعني المساهمة والتعاون على تعدداتنا. وقد أوضح الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة في سورة الروم. **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ»**[٤٥]

بل إن من أعظم ما يمكن للتقارب أن يقدمه أن يكون للناس الحق المشروع في الاختلاف، وأن يحصلوا على نفس الحق الواحد في الاختلاف. ويكون من الأفضل أيضًا حين يعي الناس معنى احترام الآخرين في ظل التعددية والاختلاف. إضافة إلى هذا، الناس مختلفون وحين يتم الإقرار بهذا، يجب الإقرار بالمساواة أيضًا.

ويوضح فضل الرحمن سبب تأكيد القرآن على المساواة بين البشر فيقول «إن سبب أن القرآن يشدد على المساواة

المبدئية بين البشر راجع إلى وجود خصلة شرمقيتة تتعلق بشعور جنس أنه فوق بقية أجناس البشر ويتفرد بأنه فوق الحيوانات. وهي الصورة التي يتجلى فيها عقل الإنسان في أشد أوضاعه انقلابًا. ومن الصحيح أيضًا أن الفارق بين قدرات البشر ومستوى إدراكهم الفعلي يتجلى في صور التفاوت بين الأجناس كالفارق بين حشرة وأخرى. ولكن حين نرتقي بميزان التطور فإن المسافات بين الإمكانيات والواقع تتزايد بالتناسب.[٤٦]

سابعًا: من المهم أن نسترجع مرة أخرى أن التقارب ليس مسألة عادات وآراء محلية أو قوانين دولة ولكنه مدونة أخلاق. إن التقارب ينبني أولًا على القيم فهي واجبة. وفي هذا المقام فإن التقارب والتعايش مع الآخرين بمثابة المرؤة والشرف. والشخص الخلوق فقط هو من يملك الحس بالمروءة. وإن الأخلاق هي التي تكسب قضية التقارب بين الأديان لونًا، والأخلاق وليست الأعراف الأخرى. فلو كان أعضاء برلمان ألمانيا خلال حكم هتلر تحلوا بالأخلاق، ما مُررت القوانين العنصرية المعادية لليهود. فقد كان أول ضحايا غياب التعايش والتقارب اليهود وغير «الآريين» الذين لفظتهم منظومة التقارب ثم القانون ثم الحياة.

إذا لماذا نُصر على الأعراف الأخلاقية؟ وذلك لأن الأعراف الأخلاقية هي تلك التي تسري باستدامة في غالبية البشر، فهي تجسد سلطة الله. فإن أوامر الإسلام مثل أوامر الإنجيل تتحدث عن الأخلاق. ومما يسير على عكس الأخلاق، فإن القوانين تأتي على أنه ثمرة المصالح السياسية واللهث وراء السلطة. فقد يمرر القوانين جماعة واحدة وتهزم أخرى في نفس الوقت لكن الأخلاق لا يمكن تنحيتها، فهي مستمدة من الإله.

ثامنًا: إن التقارب والتعايش بين البشر ثمرة التربية الأخلاقية ويتفرع من التعليم.[٤٧] لذا فإن الأديان الإبراهيمية الثلاثة والديانات التقليدية في العموم تتحدث عن الأخلاق مما يعطي فرصة للتعايش.

(للأسف، يتركز التعليم في المدارس اليوم على المواد الكمية مثل الفيزياء والكيمياء وغيرها. وإنه من الأفضل لو تلقى الطلاب دروسًا في التعايش والاحترام والشرف والشجاعة والصمت والروح الإنسانية وما إلى غير ذلك). لقد كان الطلبة في التكيات الإسلامية والأديرة المسيحية خلال العصور الوسطى يتعلمون مبادئ الشرف والصمت والاحتشام والتأمل وغيرها. فلو كانت هذه المبادئ موجودة بالمدارس ما اخترعت القنبلة الذرية والهيدروجينية. تلك القنابل الفتاكة التي تحصد أرواح ملايين البشر.

تاسعًا: إن التقارب ليس فقط تقارب بين أجناس مختلفة دينيًا ولكن يتحقق التعايش بين الرموز الدينية ودور العبادة كالمعابد والكنائس والمساجد وغيرها. ففي دول حوض البحر المتوسط (التي تتميز إلى حد كبير بالثقافة الإسلامية)، توجد عادة مشاهد تتمثل في التقارب بين مختلف المعتقدات وتعانق دور العبادة والأماكن المقدسة. إن حواضر مدن البحر المتوسط تقف فيها القباب والمآذن وأبراج الكنائس (في القاهرة والإسكندرية ودمشق وبغداد وبيروت والرباط وإسطنبول وغيرها) شاهدة على جذور سمة التقارب والتعايش الضاربة في الحضارة الإسلامية. وحُقَّ للمسلمين أن يفخروا بهذه التقاليد في البحر الأبيض المتوسط (ومن المفارقات أن تجد أن سراييفو عاصمة البوسنة ذات المساجد والكنائس والمعابد التي يمتد عمرها لقرون خضعت للحصار الشامل منذ ١٩٩٢ إلى ١٩٩٥)، وهو ما يخيم بظلال مشؤومة على مستقبل التعايش خلال القرن الواحد والعشرين.

ملاحظات ختامية

إذا تحدثنا عن واقع المسلمين في الغرب، فإنه من الصعب عليهم اليوم أن يقدموا المصادر الروحية للإسلام وذلك لأن الكثير منهم ينتمون لفئة اللاجئين وأصحاب الياقات الزرقاء من العمال والفئات المهمشة اقتصاديًا في العموم. فمازالت النخبة المسلمة في الغرب قيد التشكل ومازالت تعمل بدأب كي تُثبت نفسها وتوطد أركانها. وعلاوة على هذا، فإن المسلمين في الغرب يجدون صعوبة في الترويج لمفاهيم التعايش والتقارب تحت وطأة الهجمة الإعلامية الغربية المعادية لهم في تغطيتها للأحداث المرتبطة بالإسلام

القائمة على انحياز بصورة يومية. ورغم كل هذا، فإنه من الضروري ...»المساهمة في تهدئة الهستيريا التي أوجدها الإعلام حول خطر المد الإسلامي التي تهدد معاقل العلمانية في الغرب...»[٤٨] وفي ذات الوقت فإن المسلمين التقليديين قد يئسوا من الأوضاع السياسية المتأزمة بين النخب العلمانية اليهودية والمسيحية. وإن مثل هذه الائتلافات تعمل على تهميش الإسلام ليكون ذلك الآخر والبعيد وغير المتحضر والعصري. ويوجد من بين المسلمين من يعمل على مقاومة مثل هذه المشروعات ويدخل فيها الانتفاضات والاحتجاجات ضد الإقصاء على يد المشروع العلماني المهيمن والمستلهم من الحضارة اليهودية المسيحية. فهذا المشروع يمثل نوعًا من الهيمنة الدنيوية. لذا يعاني الإسلام من الإقصاء على يديها.

وهذا جانب واحد من مشكلة بحثنا السامي من أجل التعايش والتقارب. أما الجانب الأكثر إشراقًا والأكثر تفاؤلًا. هو أن للإسلام ما يقدمه في هذا العالم من كنوز روحانية. فقد كانت البشرية دومًا تستجيب لعالمية القرآن بما يحويه من روحانيات، ذلك لأن الإسلام دينٌ شامل، بل إن القرآن يدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى «كلمة سواء» لأن الله تعالى قال في كتابه «وإلّهنا وإلهكم واحد»[٤٩]، لذا، دعونا نقل إنه إذا حلّلنا الإسلام سنجد أنه امتداد للديانات الإبراهيمية، فالأصل واحد لذا جاء الإسلام دينًا خاتمًا للديانتين السابقتين.[٥٠] وهذا هو مفهومنا حول التقارب والتعايش في العالم المعاصر، «إنه يجب أن نعتاد أن نرى أكثر من غرب وأكثر من شرق في كل جوانب الكون. وإنه علينا أن ننشر الوعي بأهمية الحوار من أجل غد أفضل. وذلك لأن المشرق الإسلامي يعني استبعاد المشرق المسيحي أو المشرق اليهودي، ونفس الشيء ينطبق على لفظ الغرب المسيحي أو الغرب اليهودي فهو ينطوي على نبذ للإسلام الغربي. إن الديانات ذات الرسالة العالمية والتي تقدم رسالة للشرية ينبغي عليها أن تعارض أي مشروع من شأنه السعي للاستيلاء على أي بقعة من العالم فضلا عن قارة بأكملها وأن تحصرها باعتبارها أرضًا لدين واحد.»[٥١]